

في سبيل إسلام السلام

الشيخ خالد بن تونس

أستاذ الطريقة الشاذلية-الدرقاوية-العلوية

رئيس شرفي لجمعية الشيخ أحمد العلوي للثقافة والتربية الصوفية..

رئيس شرفي للجمعية العالمية أحباب الإسلام.

ملخص :

ليست العزة المادية دون الحكمة سوى زائلة، وتاريخ الإنسانية يثبت ذلك. بمجرد ما يبلغ مجتمع ما حد الهيمنة ويفرض دكتاتوريته على الآخرين، يوقع هذا الأخير بداية زواله. بقدر ما أصبح قويا بقدر ما يجب عليه أن يأخذ الحذر حتى يكون عادلا ويهدئ علاقاته مع غيره. كيف يمكن تسكين العزة التي تؤدي تلقائيا إلى الهيمنة واحتلال الغير؟ بواسطة الحكمة التي تمثل ثمرة الجهد الفكري والأدبي والروحي. إضافة إلى ذلك، يجب الشعور والمحافظة على هذا القاسم المشترك الذي يربط الرجال: الإنسانية. يؤدي بنا نقصان في الإنسانية لا محالة إلى المواجهة والاضطرابات والانحطاط. نعيش في عالم تتحكم فيه المضادات وعدم التسامح بكل أنواعه: الإكراه، التعدي، الاعتداء على الحقوق الأساسية للإنسان... بغض النظر عن الظلم وعدم المساواة في المجالات الاقتصادية والمالية والتكنولوجية، أو حتى في المجال الفكري، حيث يقتصر حق الكلمة فقط على ممثلي قوة الإعلام؛ إلا أن اختلاف الرأي والتفسير والنظر إلى العالم يمثل بالنسبة للرجال تراثا رائعا. إن عدم التسامح يمثل اليوم مشكلا أساسيا لا بد لكل واحد منا أن يشعر به كما يجب معالجته بعدم تنوع الرأي سواء على المستوى الفلسفي أو السياسي أو الديني أو الروحي. إن العمل على ذلك يمثل تحسينا للتعارف. إنها دعوة إلى احترام الغير والمحافظة على التراث العالمي للإنسانية.

الكلمات الرئيسية :

الإسلام - الدين - الحكمة - التراث - الإنسانية

إن لم تُبذل الجهود اللازمة لعزل وتحليل المشاكل السياسية والاقتصادية والتواصلية بين المجتمعات العربية-الإسلامية والغربية، سيؤدي ذلك إلى قلق وسوء تفاهم متزايد سيعود بالضرر على الجميع.

رغم ذلك، يوجد في الإسلام بعد من السلم، بعد روحي وإنساني ذو قيمة عظيمة قليل من يعرفه. بل لا تظن أغلبية معاصرنا في وجوده أصلا، حيث أنهم مصبغون بصور العنف التي - للأسف - يمرّ بها العالم الإسلامي في الأيام الأخيرة. إن الضجة الإعلامية المبالغ فيها للإسلام المتطرف التي تتزعمها وسائل الإعلام الغربية خاصة، تؤدي بنا إلى مأزق يتمثل في حذف البعد العالمي الحقيقي المحتوى في الرسالة المحمدية. لو سئل أغلب الرأي العام الغربي عن الإسلام لأجاب دون تردد أن هذا الدين دين غير متسامح ومتشدد وعنيف.

في هذا السياق، كيف نتعجب عندما نرى المسلمين يشعرون أنهم غير محبوبين في المجتمع الدولي في حين أن أغليبيتهم (ما يقارب مليار ونصف!) تطمح في أن تعيش في سلام مع العالم؟ شريطة أن ينصت إليهم هذا الأخير ويفهمهم ويقدم لهم يد كي يتمكنوا من أن يلعبوا دورهم ويحتلّوا المكانة التي ترجع إليهم بين الأمم المعاصرة للقرن الواحد والعشرين.

طريق الوسطية

انطلاقاً من هنا، يجب علينا أن نقوم بملاحظة صعبة: سيتذكر التاريخ أننا أهملنا طريق الوسطية والحكمة، تلك الطريق التي تدعو الرجال إلى الأخوة والعمل في اتجاه العدل والتسامح والتعاون بين الدول، دون أن ننسى الحق في الكرامة والازدهار لجميع الشعوب. تلك طريق الوسطية التي يدعونا القرآن إليها حين يقول: ﴿وجعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة، 143). وعليه، نحن شهود، كل واحد منا يمثل مرآة بالنسبة للآخر، سواء بأفكارنا أو أقوالنا أو أفعالنا الإيجابية والسلبية هنا في الدنيا. وفي هذا المعنى، كان يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «يا أيها الناس ألا إنما كنا نعرفكم إذ بين ظهرينا النبي ﷺ، وإذ يتزل الوحي، وإذ ينبئنا الله من أخباركم. ألا وإن النبي ﷺ قد انطلق، وقد انقطع الوحي، وإنما نعرفكم بما نقول لكم: من أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً وأحبناؤه عليه، ومن أظهر منكم شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم» (صحيح البخاري).

وعليه، منذ أول عهد الإسلام، إن العبرة بنوعية التصرف الإنساني لا بالتطبيق الصارم للحرف. جاء في الحديث: «إنما الأعمال بالنيات» (صحيح البخاري). وكذلك عن وابصة بن معبد رضى الله عنه، قال: «أتيت رسول الله ﷺ، فقال: "جئت تسأل عن البر والإثم؟" قلت: "نعم"؛ قال: «استفت قلبك؛ البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك» (مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي).

المجال الديني والسياسي

إن الأهمية المتزايدة التي تُمنح أخيرا للدين الإسلامي تتطلب بعض التوضيحات. إن العلاقة بين المجال الديني والسياسي لم تُعرف ولم تُفسّر بجدية. إذا قمنا بتحليل واضح دون أفكار مسبقة، ماذا نلاحظ؟

إن الإسلام موجود لإنارة وتربية وإيقاظ ضمير الشخص والمواطن كي يلعب دورا فعالا ومفيدا في خدمة الجميع، لا ليصبح عاملا مدمرا لنفسه ولغيره باسم حقيقة يزعم أنه يملكها. إنه يساعد الإنسان على بناء المجتمع الإنساني بصورة إيجابية.

إن المظهرين السياسي والديني متكاملان ويلتقيان في التربية المدنية للشخص. لو تُعرّف السياسة بأنها تسيير مدينة الرجال، إن الروحانية هي تسيير مدينتنا الباطنية. إنها تدفع بنا إلى سلوك طريق الخير والوحدة والأخوة. ليست مهمتها عزل السياسي: بل هي التي تمنحه معنى وتجعله إنسانيا. فعلا، بقدر ما ارتفعت روحانيتنا بقدر ما انشرح عقلنا واتسع مجال ضميرنا، وبقدر ما تأكدت قدرتنا على إدراك مختلف الحاجات الإنسانية وأخذها بعين الاعتبار، وكذا محاربة الظلم.

قدسية الحياة

يوجد خلط جوهري آخر: يُقدّم الإسلام بأنه دين - من خلال أفعال المتشددين - لا يعطي أي قدسية للحياة، وكأنه لا قيمة للوجود الإنساني. عكس ذلك، حين نرجع إلى مصادر التعليم المحمدي نرى أن الإسلام يمنح مكانة معتبرة لحياة الكائن بصفته ضميرا وكذلك لمجموعة المخلوقات. يدعو بنا القرآن من خلال عدد هائل من الآيات إلى احترام الحياة وقدسيتها: ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾ (المائدة 32). حتى في حالة الصراع، لا يجوز الاعتداء على

الشيوخ والنساء والأطفال ورجال الدين، كما يُحرم إفساد المياه وقطع الأشجار وقتل الحيوانات وحرق الأمتعة. يجب أيضا احترام الأسرى، في زمن النبي ﷺ، كان بإمكان هؤلاء أن يُعتقوا بتعليم الأُميين القراءة والكتابة. في حالة الفتن، لقد بين لنا النبي ﷺ السلوك الذي يجب اتباعه: عن أبي بكر رضي الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي»، سأله رجل: "أفرأيت إن دخل بيتي وبسط يده إلي ليقتلني؟" قال ﷺ: "كن كابن آدم" وتلى عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسُطَ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (سنن الترمذي).

العقل نور

كما كان الخليفة الرابع سيدنا علي كرم الله وجهه يقول بأن الروح تنشط الجسم، كان يقول بأن العقل ينشط الروح.

منذ بداية الإسلام، ويلعب العقل دورا جوهريا. وعليه، إن أول ما أوحى إلى محمد ﷺ كان: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق 1 - 5).

إن تعاليم هذه الآيات تخاطب في أول المطاف العقل بصفته العنصر الأساسي للإدراك لدى الكائن الإنساني. إن القراءة والتعلم جزء من تلك الركائز التي تمنح العقل الوسائل التي بها يصبح قادرا على معرفة نفسه. بواسطة هذه المعرفة، إنه يظهر لنفسه ويكتشف طبيعته وآثار تصرفاته. وعليه، يأخذ مبدأ الدين معناه الكلي إذ أنه يمثل في آن واحد الصلة مع المطلق وكذا قراءة آيات الله في أنفسنا ومن خلال الخلق... إن هذا النص موجه إلى الإنسان العاقل، الذي من ظاهر الأمور يستنبط لطيفها ويكتشف الأسرار المكنونة في الخلق فيدرك دور القوانين

الأساسية التي تنظم الحياة. وعليه، منذ بداية الإسلام، إن العقل يحتل مكانة جوهرية.

كما أن الشريعة تجعل العقل في المقام الأول حين تعتبره الشرط الأساسي للتكليف. من جهة أخرى، إن مؤسسي المدارس الفقهية وضعوا قيما ومعايير عقلية حتى لا تُطبّق نصوص الشريعة دون تفكير مسبق. وعليه، لقد جعلوا الرأي كقاعدة وكذا الإجماع لتوحيد الآراء، القياس كوسيلة للمقارنة وأخيرا الاجتهاد الذي يتطلب البحث والتفكير للاستجابة للمتطلبات النامية للمجتمع. إن هذه المدارس المختلفة التي وجدت في العالم الإسلامي والتي لازالت موجودة إلى يومنا، سمحت منذ أول العهد انشراح الفكر وتفتحه وتألّفه أثناء العصر الذهبي للحضارة الإسلامية... لم يكن بإمكان أي عالم - مهما كان مقامه في العلم - أن يفرض أفكاره على الأمة بأسرها. كان اختلاف الرأي وتنوّع المدارس يمثل غنى الفكر الإسلامي الذي كانت تسوده القاعدة: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة 256). كيف نفسر أنه في القرن الثالث الهجري، في عاصمة العالم الإسلامي بغداد، كانت مختلف الاتجاهات الفكرية: المتكلمون، الفقهاء، الصوفية... يعيشون معا ويتبادلون وتتناقشون بكل حرية؟ كانت بيت الحكمة مفتوحة للجميع، سواء تعلق الأمر بالفلاسفة المسلمين أو اليونانيين، بل حتى فلاسفة الفكر اليهودي والنصراني والصابئي؟ كان كل واحد منهم قادرا على مناقشة آرائه بكل حرية. دون أن ننسى الأندلس التي بلغ فيها التسامح والحوار بين الديانات ذروته. كانت العلوم والمعارف تلقن وتعلم للجميع دون الأخذ بعين الاعتبار اختلاف الجنس أو الدين. أخيرا، لقد تم تجديد الفكر اليهودي في أرض الإسلام من طرف ابن ميمون اليهودي الذي تلقى علومه بفاس (المغرب) وألّف كتابه بمصر.

عدم التسامح، مشكل أساسي

يتوقف حد التسامح حين يبدأ عدم-التسامح : حين يصبح الكائن يمثل خطرا بالنسبة إلى غيره. نعيش في عالم تتحكم فيه المضادات وعدم التسامح بكل انواعه : الإكراه، التعدي، الاعتداء على الحقوق الأساسية للإنسان... بغض النظر عن الظلم وعدم المساواة في المجالات الاقتصادية والمالية والتكنولوجية، أو حتى في المجال الفكري، حيث يقتصر حق الكلمة فقط على ممتلكي قوة الإعلام؛ إلا أن اختلاف الرأي والتفسير والنظر إلى العالم يمثل بالنسبة للرجال تراثا رائعا. كل واحد منا يمثل مرآة بالنسبة لغيره. لا يستطيع وجودي أن يظهر إلا بالنسبة لغيري. إنني بحاجة إلى غيري حتى أفكر وأكون موجودا، بعبارة أخرى : حتى أعيش. باختلافه عني في شريعته وأعرافه، ليس هذا الأخير حتما عدوا لي ولو أنه يفكر ويبعد... بكيفية مختلفة. يوجد الغير هنا كي يظهر لي تراثي. إن عدم التسامح يمثل اليوم مشكلا أساسيا لابد لكل واحد منا أن يشعر به كما يجب معالجته بدعم تنوع الرأي سواء على المستوى الفلسفي أو السياسي أو الديني أو الروحي. إن العمل على ذلك يمثل تحسينا للتعارف. إنها دعوة إلى احترام الغير والمحافظة على التراث العالمي للإنسانية.

العزة والحكمة

ليست العزة المادية دون الحكمة سوى زائلة، وتاريخ الإنسانية يثبت ذلك. في الإطار الحالي، إنه من المستعجل جدا إعادة النظر في هذا التوازن. فالعزة المنعدمة من الحكمة كانت منذ القديم عاملا لإخلال التوازن وانحطاط المجتمع أو الحضارة.

بمجرد ما يبلغ مجتمع ما حد الهيمنة ويفرض دكتاتوريته على الآخرين، يوقع هذا الأخير بداية زواله. بقدر ما أصبح قويا بقدر ما يجب عليه أن

يأخذ الحذر حتى يكون عادلا ويهدئ علاقاته مع غيره. كيف يمكن تسكين العزة التي تؤدي تلقائيا إلى الهيمنة واحتلال الغير؟ بواسطة الحكمة التي تمثل ثمرة الجهد الفكري والأدبي والروحي. إضافة إلى ذلك، يجب الشعور والمحافظة على هذا القاسم المشترك الذي يربط الرجال: الإنسانية. لا نستطيع تحقيق اتزان العزة الدنيوية إلا بأكبر قدر من الإنسانية. يؤدي بنا النقصان في الإنسانية لا محالة إلى المواجهة والاضطرابات والانحطاط. إن النقصان في الإنسانية يؤدي بنا إلى المزيد من الحيوانية. فاليوم، يجب أن يكون المعنى والقيم الإنسانية محوَر انشغالاتنا. كيف نستطيع إيقاظ حال الضمير لدى الإنسان، كيف نستطيع إنماء؟ لا يكون ذلك إلا بالارتباط العميق بذلك الأصل المشترك: الأخوة الآدمية. قال النبي ﷺ: «كلكم من آدم وآدم من تراب». تفرض الحكمة على الذي يوجد في أعلى السلم (السياسي، الاقتصادي، العسكري، العلمي) والذي يمتلك سلطة تتحكم في مصير الإنسانية أن يحقق حال الإنسان الأكثر كياسة والأكثر عدلا والأكثر كمالا.

المصير المشترك أو طريق الأمل؟

في الظروف الحالية، هل مسموح الأمل في التجديد؟ أبقى شخصيا متفائلا أمام ما يحلّ بنا. إن مختلف الحوادث التي وقعت تمثل نداء كي نتفطن ونراجع كيفية تسييرنا وتعميرنا مستقبلا مشتركا للأجيال اللاحقة. كيف يمكن اليوم لمجموعة منشطة بإيديولوجية - مهما كانت - أن تكون قادرة على تهديد الإنسانية؟ ما هو الأمر الذي أدى بنا إلى هذا الضعف؟ يجب على كل واحد منا أن يجد وحده الإجابة.

تبقى الأجوبة كثيرة: في أول المطاف يوجد الظلم على المستوى السياسي والاقتصادي. كيف يمكن لـ 15% من سكان العالم (أوروبا، الولايات المتحدة، واليابان) أن تمتلك حوالي 60% من الثروات في العالم؟ كان الإمام علي كرم الله وجهه يعتبر العدل واحدا والظلم كثيرا، لذلك فإن الظلم أسهل

من العدل. إضافة إلى الظلم، توجد مسألة الكرامة الإنسانية. هل الرجال متساوون في الحقوق؟ هل الحياة في الشمال لها أكثر قيمة من الحياة في الجنوب؟ مهما كان أصل الكائن، يجب أن يُحترم ويُعتبر مهما كان دينه وجنسه ولونه ولغته... يوجد العديد من النصوص تضمن الحقوق الأساسية للإنسان صادقت عليها جميع الدول لكن نادرا ما تطبق. إن الفجوة الفاصلة بين البلدان المتطورة والبلدان الفقيرة كبيرة جدا. لو أردنا بناء مستقبل مشترك لصالح الجميع، كيف يجب أن يكون هذا الانقسام؟ كيف تستطيع هذه الدول الغنية أن تساهم وتساعد البلدان الأخرى على الالتحاق بها في خدمة المنفعة والمصلحة العامة؟ بأكثر قدر من الاحترام: الاعتراف بالحق في الاختلاف. أم أصبحت المصلحة الإنسانية مادية محضة ترتبط فقط بالاستهلاك المسرف والتطور المبالغ فيه؟ ألا يجب التصالح وتلقيين القيم الشريفة والكاملة لهذا التراث المشترك للإنسانية؟

محراب لله تعالى

إن الإنسان هو الكائن الأكثر تعقيدا في الوجود، إنه قادر على أحسن الأعمال وعلى أسوأها. إنه يعطي الحياة والموت، يوجد هذا التناقض لدى الكائن الإنساني منذ بداية أمره. إلا أن الأمر الذي يميّز الرجال بينهم هو القدرة العظيمة في التحكم في النفس. إن الرجل الذي ليس له هذا التحكم في نفسه هو كائن ناقص. وعليه، كيف نستطيع تسيير تناقضاتنا: الظلمات والنور...؟ إن الرجال قادرون على أقبح الأعمال لكنهم أيضا قادرون على أعمال رائعة على المستوى الفني والعلمي... يستطيع بعضهم أن يرفع المثل الإنساني إلى مستوى يتعارف فيه الناس ويتعاونون ويتحابون من خلاله. قد يملك بعضهم من الشفقة إلى حد أنهم يخففون من عبء آلام غيرهم. علينا أن نفكر في شأن الحكماء والأنبياء والفلاسفة ورجال الإصلاح الذين عملوا

وتركوا آثارهم عبر التاريخ. بلغ بهم الأمر أحيانا إلى التضحية بحياتهم حتى لا تسقط الإنسانية في اليأس والانحطاط.

وعليه، توجد حاجة مستعجلة إلى ظهور كائنات تمثل محارِب حية لله تبارك وتعالى وأحسن الشهداء. إنها السيارات التي تنقل رسالة المحبة والشفقة والأمل والرحمة.

فهمُ المبشرون بحلول العصور الجديدة - عصر عودة المسيح ﷺ - ذلك العصر الذي فيه يسود العدل، حيث لا يصبح الإنسان ذنباً لأخيه. قد يبدو هذا القول وهمياً، لكنه في واقع الأمر التحديّ الجوهرى الذي يجب تحقيقه في هذا القرن الجديد حتى نبني عالماً تهاداً فيه الصراعات والتناقضات: الأخوة الكاملة تبقى المفتاح.

إن هذه الأخوة على شكل دائرة كل شخص فيها جزء متكامل مع غيره. لا يوجد في هذه الدائرة أول ولا آخر. كل واحد منها معنيٌّ، إنه في آن واحد الأول والآخر. أرجو أن تلتقي الإنسانية في هذه الروح من الوحدة حتى تحقق أحسن مصير.

من نفس المؤلف :

- التصوف قلب الإسلام، دار الجيل، بيروت، 2005.

- الإنسان الباطني على ضوء القرآن، ألبان ميشال، باريس، 2006.

- عيش الإسلام : التصوف اليوم، ألبان ميشال، باريس، 2006.

- علاج النفوس، ألبان ميشال، باريس، 2009.

- التصوف : الارث المشترك، باريس، بروسي، 2009.